(٣)

التطور والخلق
بماذا يعد كل منهما؟

obeikandl.com

obeikandl.com

التطور والخلق
بماذا يعد كلٌ منهما؟

عندما نقارن بين السلبيات والإيجابيات في مسألة الإيمان بفرضية التطور والإيمان بنظرية الخلق فسنرى جليًّا كم أن الإيمان بفكرة التطور مدمر للطبيعة البشرية والحياة الاجتماعية، ويظهر ذلك فيما يلي:

١أ. أسباب التغير التي تعتمد عليها فرضية التطور مجرد مصادفات وتفاعلات كيميائية عشوائية وطفرات عارضة.

١ب. أمَّا في نظرية الخلق، فلا يقع أي حدث في الطبيعة مصادفة دون تخطيط، سواء بالصدفة أو عَرَضًا، فهذا لا يحدث مطلقًا.

٢أ. وفقًا لفرضية التطور، إنما تنشأ الأحداث والعمليات البيولوجية نتيجة علاقات السبب والنتيجة المادية.

٢ب. على النقيض، فوفقًا لنظرية الخلق، لا يمكن إنكار الأسباب، لكنها انعكاس للتدابير الإلهية، ومن ثم ينبغي أن نسعى وراء الأسباب المادية على أنها جزء من جهودنا الحثيثة لفهم السبب الجوهري وراء الظواهر الطبيعية.

٣أ. وفقًا لفرضية التطور، الانتخاب الطبيعي هو صراع مرير يكون البقاء فيه للأقوى والموت للأضعف، أمَّا الحقائق الروحانية مثل العاطفة والرحمة والتوكّل فلا مكان لها ولا يعول عليها؛ فبدلًا من التحلي بصفتي التعاون والإيثار، يكون المنطق السائد هو التفكير في أنفسنا فقط، ومن ثم ففكرة "لا أبالي إذا مات الآخرون جوعًا ما دامت معدتي مليئة" فكرة مقبولة ومعقولة عند الإيمان بفرضية التطور.

obeikandl.com

٣ب. ولكن وفقًا لنظرية الخلق، فالانتخاب الطبيعي ليس مجرد صراع من أجل البقاء تنقصه العاطفة والرحمة، ورغم أن الصراع في سباق البقاء حقيقة واضحة فإن مظاهر التعاون والتضامن والرحمة –بفضل رحمة الله– تظل لا غنى عنها في هذا الصراع، فكل حدث في الطبيعة له حكمة وهدف لا نعلمهما، فمثلًا للحفاظ على توازن النظام البيئي تصبح الحيوانات الضعيفة والمريضة طعامًا للحيوانات الأقوى، وهكذا لا يتحول سطح الأرض إلى مرمى نفايات، بل تظل هناك مساحة كافية للأجيال الجديدة بعد التخلص من الأجيال القديمة والمريضة، ويصبح استمرار دورة الطعام أمرًا مؤكدًا.

٤أ. طبقًا لفرضية التطور، لا تتمتع قوانين الطبيعة –التي تعد الحياة ناشئة عن مواد غير عضوية– بأي عقل أو وعي أو معرفة أو قوة، وهكذا لا فائدة من البحث عن سلطة أكبر أو فنان لأن هذه القوانين ليس لها هدف أسمى؛ ذلك أن الفنان الذي يخط قوانين الطبيعة وفق هذا التفكير هو الطبيعة نفسها، ويفترض هذا المنطق أن أيّة آلية حية إنما تنشأ نتيجة أنشطة حدثت بالصدفة للذرات والجزيئات التي تشكله، وأن هذا النظام الحي يعمل من تلقاء نفسه، ومن ثم فليست هناك حاجة للبحث عن فنان أبدع أيّة آلية طبيعية أو أعدَّ وظائفها.

٤ب. وعلى النقيض؛ فإنه وفقًا لنظرية الخلق ليست قوانين الطبيعة هي الفنان ولكنها عمل الفنان؛ أي إنّها أعمال فنية ليس لها عقل أو وعي، إذًا هناك خالق يضع "قوانين الطبيعة"، ويحمي هذا النظام بتشغيله وفق أوامره، ويتخذ الإجراءات الوقائية لحمياته، وينظم القوانين التي تجعله يؤدي وظائفه على أفضل وجه، وبما أن الجميع يعترف أنه لا يمكن أن توجد منضدة أو سيارة من تلقاء نفسها عن طريق المصادفة، وأنه

لا بد من وجود صانع يصنع هذه الأشياء؛ فكذلك لا يمكن للخلية التي هي أعقد ملايين المرات من المنضدة، أو للعقل البشري الذي هو أعقد مليارات المرات من السيارة، أن يوجدا مصادفة دون صانع.

٥أ. قد يزعم بعض الماديين وجود وعي وعقل خفيين في الذرات والجزيئات لتبرير أدائهما المثالي لوظائفهما وتنفيذهما لبرامجهما بلا عيوب، وذلك فيما يتعلق بتحديد مكان وزمان حركة كل ذرة في هذه العمليات البيولوجية؛ بل قد يعتبرون الذرات والجزيئات مخلوقات حساسة ذات إرادة.

٥ب. من ناحية أخرى، لا ينسب الإيمان بالخلق أية معرفة أو إرادة للذرات أو الجزيئات، فهي ليست إلا جسيمات لا إرادة لها ولا وعي، تنفذ أوامر خالقها بدقة، وتؤدي وظائفها دون مقاومة أو ضعف في إذعانها.

٦أ. ومع أن فرضية التطور تبدو مجرد افتراض حول علم الأحياء، فإنها ظلت في الواقع الأساس الفلسفي الذي بنيت عليه فكرة المادية والإلحاد مدة قرن ونصف، وقد استخدمت بقوة لمعارضة الإيمان بالله تحت اسم العلم؛ ولهذا لا ينبغي أن ننظر إلى التطور على أنه نظرية علمية، بل على أنه اعتقاد يناقض الدين.

٦ب. وعلى النقيض فالإيمان بحقيقة الخلق رؤية عالمية كاملة تستند إلى مصادر دينية، ولا فرق بين فرضية التطور ونظرية الخلق فيما يتعلق بمعايير كونهما نظريتين "علميتين" في وقتنا الحالي، ولكن الفرق الوحيد أن فرضية التطور رؤية عالمية إلحادية ونظرية حقيقة الخلق رؤية عالمية توحيدية.

٧أ. من اليسير ملاحظة اللغة الخاصة التي يستخدمها مؤيدو أيديولوجيا

التطور عند شرحهم للظواهر الطبيعية، فمثلًا يقولون "نشأ الكائن الحي"، "نشأ عن طريق التطور"، "اختفت آثاره مع الزمن"، "اكتسب عن طريق التكيف"، "ظهر نتيجة الانتخاب الطبيعي"، تشير كل هذه العبارات ضمنيًّا إلى زعم عدم وجود حاجة لخالق، بما أن قوانين الطبيعة نفسها "تخلق".

٧ب. لكن المؤيدين لفكرة الخلق ابتكروا عبارات خاصة بهم أيضًا، مثل "خُلق الإنسان على هذا الشكل"، "خُلق الإنسان في أحسن تقويم"، "خُلق وصُمم في أحسن تقويم". تشير هذه العبارات ضمنيًّا إلى الخالق من خلال التأكيد على التناغم والتخطيط، ومن خلال التركيز على وجود برنامج ونظام وترتيب للأشكال والعمليات الطبيعية.

٨أ. يرى أنصار فرضية التطور أن وجود الأعضاء المناسبة في الجسم وقيامها بوظائفها على أحسن وجه في الكائن الحي نِتاج عمليات التكيف والانتخاب الطبيعي، ومن ثم فمن غير المعقول أن نبحث عن هدف أو حكمة وراء هذه البنية، أو أن نفكر في خالق.

٨ب. من ناحية أخرى، يؤمن أنصار نظرية الخلق أن الخالق خلق كل عضو لهدف معين بحكمة إلهية عظيمة، وبما أن المصانع العضوية مثل الخلية والأعضاء المركبة مثل العين أنظمة مثالية؛ فليس من الممكن أن تتحول هذه الأنظمة من بنيان ذي عيوب أو جزئي التطور إلى شكل يؤدي وظائفه على أكمل وجه عن طريق التطور لا غير؛ لأن هذا الافتراض نفسه يستلزم وجود غرض محدد، فهل يمكن أن يتصور أي شخص عاقل مدرك تطور عضوين محددين في الجسم عن طريق المصادفة حتى يكوّنا عينًا أو أذنًا بإدراك وبلا تردد، بينما لم يوجد أي شيء في مكانهما منذ البداية؟

٩أ. وفقًا لفرضية التطور، لا داعي لتمييز الإنسان بفصله أو تفضيله عن الكائنات الحية الأخرى، فهو لا يختلف عن فصيلة القرود إلا قليلًا،

وبمعنى آخر: ما الإنسان إلا حيوان أكثر ذكاء، ومن هذا المنظور يمكن للبشر أن يتبعوا القوانين الأساسية للحيوانات كما تفعل الحيوانات الأخرى، ومن ثم يحصل البشر ضمنيًّا على تصريح بالتخلي عن القيم الأخلاقية والإنسانية.

٩ب. لكن وفقًا لنظرية الخلق، خلق الله البشر متميزين عن المخلوقات الأخرى حتى يتعرفوا على خالقهم ويؤمنوا به؛ ولهذا منحهم الله بعض المزايا مثل العقل والوعي والقلب والروح وغيرها من الصفات الأخرى التي تحسن من قدراتهم المعرفية والإدراكية. ولأن البشر أفضل المخلوقات عليهم أن يثبتوا اختلاف طبيعتهم عن الحيوانات عن طريق الإيمان بخالقهم، واتباع المبادئ الأخلاقية التي يأمرهم بها، اعترافًا منهم بالفضل له وحمدًا له على خلقهم في أحسن صورة، وعلى البشر أيضًا أن يثبتوا فهمهم للغرض من وجود الخالق.

١٠أ. إن أهم نتيجة للإيمان بفرضية التطور واعتناقها كما لو كانت دينًا هو أنها كأي رؤية عالمية تترك آثارها، وتفتح أبوابًا جديدة للنقاش في أغلب مجالات العلوم، بداية من علم الفلك إلى علم الاجتماع، ومن علم الفيزياء إلى علم النفس؛ وبعض النظريات مثل نظرية ماركس الاقتصادية ونظرية فرويد النفسية تحالفت مع فرضية التطور للهجوم على نفس الهدف. إن هؤلاء الذين يؤمنون بأن الكون لا مالك له ولا يؤمنون بأنهم سيحاسبون على كل ما يفعلون سيقومون على الأرجح باستغلال البيئة من حولهم.

١٠ب. أما الإيمان الذي يرتكز على أحد الأديان السماوية ونظرته العالمية فإنه سينعكس في كل المساعي العلمية لأتباع هذا الدين؛ فنظرة الفرد وتقديره للطبيعة أيًّا كان المجال العلمي الذي يدرسه سوف يلقي

بالضوء على قيمه الأخلاقية ويقظة ضميره، كما أن البحث العلمي الناتج عن هذا المنظور سيكون مفيدًا للبشرية كلها، وستكون لهذه الرؤية نتائج أهمّها: حماية البيئة والحفاظ على كل صور الحياة والاهتمام بالإنسان والطبيعة على حد سواء والتعامل معهما على أنهما أمانة من الله.

بوجه عام نادرًا ما يُقام نقاش جاد حول أفكار التطور وحقيقة الخلق بين العلماء الذين تشكلت أفكارهم وفق هاتين الفكرتين؛ ذلك أن موضوع الفكرتين يتجاوز حدود العلم لأنه ذو طبيعة خاصة تتطلب التفسير، ولو كان الموضوع يقع في إطار العلم، أي إنه يخضع للتجارب والملاحظات، لما ظهرت مشكلة، فمثلًا لا توجد صعوبة في حل مسائل الفيزياء التي تقع في حدود العلم، مثل قانون الجاذبية وحساب تمدد المعادن وقوة رفع المياه وضغط الهواء، لكننا كثيرًا ما نشهد جدلًا ومناقشة للموضوعات والاعتقادات عالمية الرؤيا، وهذا يكون في الفيزياء كذلك عندما يكون الموضوع دون المقياس الذري؛ مثل ميكانيكا الكم، والمواد المضادة، والوجود مقابل عدم الوجود، وغيرها.

ويرجع السبب في ذلك إلى أن البشر يشعرون بالحاجة للإيمان بنظام قيم ويستمسكون به، وتلك ضرورة تفرضها عليهم طبيعتهم الناتجة عن خلقهم، ولكي يُشبع البشر الشعور بالإيمان والتعلق الموجود في قلوبهم ووعيهم -ويا ليتهم هنا تأمّلوا كتاب الكون وكتاب الله عز وجل فإن لم يفعلوا ازدادوا تيهًا- فعليهم إما أن ينظروا إلى الطبيعة على أنها "عمل فني من صنع الخالق" أو أنها النتيجة الطبيعية للتطور، وفي هذه المرحلة تظهر أهمية خاصة لموقف العالم؛ ولو علمنا أن كل واحد من العلماء نشأ في بيئته الأسرية ومجتمعه الخاص مؤمنًا ببعض القيم والمبادئ، فلا يمكن

أن نتوقع أن يكون شخصًا موضوعيًّا في أحكامه، وبمعنى آخر: هل من المعقول أن يتخلى عالم عن معتقداته تمامًا بمجرد دخوله المعمل؟

إن العالم الذي يقوم بدراساته من منطلق الإيمان -وهو من يطلق عليه "عالم متدين"- سوف يشير دومًا إلى الخالق عند تفسيره لنتائج دراساته، بينما يفسر العالم الذي يرى كل شيء من منظور إلحادي النتائج التي توصل إليها وفق الفلسفة المادية أو الوضعية، ومع أن كليهما يعد اعتقادًا ورؤية عالمية، فإن الحجج والأفكار التي يُفترض أن تناقش بكل لطف في بلد ديمقراطي تُعرض بأسلوب عدواني مهين دون إبداء أي احترام أو تسامح أو صبر تجاه الأفكار المضادة.

إن تقديم فرضية التطور كما لو أنها ثبتت فعليًّا أو أنه قد تم الاتفاق على كل القضايا المتعلقة بها لهو أمر يناقض كل مبادئ ومناقشات العلم الحديث؛ ففي واقع الأمر لطالما أثارت فرضية التطور التي افترضها داروين ردود أفعال شرائح عريضة من المجتمع، لكنها استطاعت أن تُخمد ردود الأفعال الأولية، حتى في وجه الشكوك التي غرستها الأيديولوجيات الدينية في الكنيسة وبعض التفسيرات الواردة في الإنجيل، وكان ذلك يرجع جزئيًا إلى عدم قدرة المصادر المسيحية على تقديم إجابات مقنعة لهذه الشكوك المبكرة، وهكذا وجدت النظرية مكانها في المجتمع العلمي تدريجيًّا، وبدأت في إعطاء الانطباع أنها اكتسبت هوية علمية، وفي ذلك الوقت ظل العلماء المتدينون صامتين بسبب تخوفهم من اتهامهم بالرجعية والتخلف في خضم ذلك المناخ المستبد الذي خلقه أنصار فرضية التطور، ممن لم يتورعوا عن استخدام اهتمام العامة بالعلم وثقتهم فيه لتحقيق مصالحهم الخاصة.

وامتلأت الكتب الدراسية بأشكال القردة التي تظهر التحول التدريجي من مخلوقات تشبه القرود إلى مخلوقات تشبه البشر كما لو كانت أدلة ثابتة من الطبيعة، وحاولت هذه الأشكال المزعومة أن تشرح كيف انتصبت المخلوقات التي تشبه القردة على قدمين بعد أن كانت تقف على أربعة أقدام، وكيف ظهرت لها عظام فك سفلي منتفخة وجباه بارزة وكيف بدأت تطرح شعرها بشكل دوري، إضافة إلى ذلك، ثار جدل بشأن الحيوانات التي كان الإنسان خلفًا لها وسط هذا العدد الهائل من الأفرع في شجرة السلالات الزائفة التي يُفترض أنها تبرهن على "انبثاق" جميع الحيوانات بعضها من بعض عن طريق المصادفة، وتحولها من كائنات وحيدة الخلية إلى ثدييات.

بالرغم من تقديم فرضية التطور باعتبارها قانونًا ثابتًا راسخًا في العديد من بلدان العالم حتى خمسينيات القرن العشرين، فقد احتدت النقاشات بين أنصار فرضية التطور ومؤيدي نظرية حقيقة الخلق بعد اكتشاف أن بعض الأحفوريات التي قدمها أنصار التطور كانت زائفة وضعيفة.

وفي مثل هذا المناخ -عندما كان من الصعب التعبير عن أي أفكار تناقض فكرة التطور- اكتشف واطسون وكريك تركيب جزيء الحمض النووي *DNA*، وأعلنا تركيبه عام ١٩٥٣م، وباكتشاف التركيب الحلزوني المزدوج للحمض النووي -وهو بنية برنامج وعملية لا تعتمد على حدوث أي مصادفات في الخلية، ومن ثم في أي كائن حي- أصبح هذا التركيب المثالي معروفًا على نطاق واسع، فزاد الإيمان بنظرية الخلق مرة أخرى، وفي الوقت نفسه ابتكر بعض العلماء مناهج جديدة تناهض فرضية التطور، هدفها أن توضح أن الخلق -وهو الحقيقة التي أثبتها الدين- تتفق اتفاقًا تامًا مع الحقائق التي توصلت إليها وسائل العلم الحديث.

وتدريجيًّا أصبحت كل مغامرة بحثية وكل اكتشاف في علم البيولوجيا الجزيئية وعلم الوراثة والكيمياء الحيوية وعلم الأجنة وعلم وظائف الأعضاء تبين مدى ضآلة المعلومات التي يملكها العلماء حول ظاهرة الحياة نفسها؛ لأن كل اكتشاف جديد يكشف مظهرًا من مظاهر الإعجاز في تلك الحياة المعقدة بشكل أكثر عمقًا، ومع تكدس الحقائق التي أثبتتها التركيبات البيولوجية المثالية المعقدة -التي يستحيل أن تكون قد نشأت نتيجة المصادفة- فقد أصبحت هذه الحقائق عائقًا لا يمكن تجاوزه في وجه فكرة التطور، ومن ثم تمكن مؤيدو فكرة الخلق من التخلص بشكل نهائي من هذا المناخ العدائي الذي ساد مع بدايات ظهور أيديولوجيا التطور، وعامًا بعد عام زاد عدد الدراسات التي تثبت خلل فرضية التطور وزيفها، وتم إنشاء عدد من المؤسسات التي تؤيد نظرية حقيقة الخلق، مثل هيئة أبحاث الخلق في الولايات المتحدة، وهكذا ارتفعت أصوات الاعتراضات على نظرية التطور من قبل العلماء الذين آمنوا بفكرة حقيقة الخلق على مدار الثلاثين عامًا الماضية، وفي المقابل ضعف موقف الأدلة التي تؤيد فرضية التطور بشكل متزايد.

وقد أعقب هذا الموقف نقاشات كثيرة في العديد من المؤسسات الغربية، وبدأت فكرة تدريس الفكرتين على أنهما فلسفة بيولوجية في الظهور، وأضيفت أيضًا وجهات نظر متعددة على مناهج المدارس والكتب الدراسية في بعض الدول مثل تركيا منذ عام ١٩٨٠م، ولكن هذا المنهج الموضوعي سبب إزعاجًا لأنصار فرضية التطور؛ ولهذا حاولوا فصل الفكرة عن هدفها الحقيقي عن طريق إثارة بعض الاعتراضات على تدريس فكرة حقيقة الخلق، مثل زعمهم أن الدين قد يتعارض مع المجال العام، وسرعان ما أضفوا على القضية صبغة سياسية وكأنها صراع بين

التقدم والرجعية ومعاداة الحداثة، بحيث ربطوا الإيمان بالخلق بمعاداة الحداثة، نحن نتطلع لمستقبل قريب يمكن فيه التعبير عن كل الأفكار بحرية، دون اضطهاد أحد بسبب أفكاره، وأنا أؤمن أن النقاش المتسامح غير المتحيز الذي يحترم الدين والعلم ولا يعتبرهما نقيضين سينتج عنه تفكير منسجم ومجموعات مبتكرة من الأفكار.

obeikandl.com